مجلة المجمع العلمي

مدلولات رمز ثور الوحش في الشعر الجاهلي

الدكتورعبد اللطيف حمودي الطائي

جامعة بغداد – كلية الآداب

الملخص :

القصيدة العربية الناضجة المستوفية لتقاليدها الفنية ؛ تبدأ بمقدمة ثم تنفتح على الجزء الثاني منها المتمثل بلوحة الرحلة ؛ ولوحة الرحلة تمثل الجسر الرابط بين طرفي القصيدة (المقدمة والغرض) ؛ والرحلة بمعناها الظاهر تمثل الانتقال من مكان إلى آخر ؛ وهو ما يقوم به الشاعر على أرض الواقع في الأغلب الأعم ؛ وفي القصيدة العربية هي رحلة من المقدمة إلى الغرض ؛ وهذه الرحلة بحاجة إلى واسطة لكي تقطع الصحراء ورمالها المترامية الأطراف ؛ والناقة هي الحيوان المثالي الذي يصلح لمثل هذه الرحلات ؛ لذلك شبهوا الناقة بسفينة الصحراء ؛ لما يتوافر فيها من القوة والصبر على تحمل المشقات ؛ والمطلوب من هذه الناقة أن تقطع الفيافي والقفار الموحشة في الحر والبرد ؛ وتحت وطأة الجوع والعطش ؛ بسرعة كبيرة لتصل بمن ارتحلها إلى شاطئ الأمان والنجاة ؛ لذلك دأبوا على تشبيه تلك الناقة بالحيوان المطارد والمستفز ؛ الهارب خوفا من الموت المتمثل ؛ بالضواري المفترسة مثل السباع والذئاب ؛ فضلا عن الصياد وكلابه ؛ فيشبونها بالبقرة المسبوعة التي افترس السَبُعُ وليدها تارةً ؛

وتارةً أخرى يشبهونها بالحمار الوحش وآتانه ؛ وأخرى بثور الوحش وصراعه الدموي مع الصياد وكلابه ؛ وثور الوحش هو الرمز الذي سيكون محورا لهذه لدراسة .

الدراسة :

الثور ومنذ القدم معروف عند الأمم التي سبقت الإسلام ؛ فهو يرمز بصورة عامة إلى البطولة الفردية والشجاعة ؛ وقد وظفت هذه المواصفات عند كل امة حسب معتقدها ؛ لذلك نجد الأمم التي سبقت العرب قد اتخذت من الثور إلها معبودا مقدسا ومبجلا ؛ فأطلقت عليه أسماءً واسبغت عليه ألقابا ؛ ندرج في أدناه بعضا منها على سبيل الإطلاع والمعرفة وليس الحصر :

١- فهو إلهٌ يرمز إلى القوة والخصب ؛ وهو إلهُ العواصف عند السومريين ؛ وأسموه (إنليل) وعبدوا معه البقرة ؛ ومن زواجهما المقدس فاضت دجلة والفرات بالخصب على أرض سومر .[١]

٢- وهو عند الحيثيين (في آسيا الصغرى) إلهُ المطر والبرق والعواصف الرعدية ؛ وهو إلهٌ عنيف ؛ صعب المراس ؛ يهيج دونما إنذار ؛ وهو قويٌ يرمز للقوة التناسلية .[٢]

٣- كان الأشوريون يضعون الثيران المجنحة على أبواب قصورهم ؛ حارسةً وراعيةً لأنهم كانوا يعبدون الإله ثور .[٣]

---

(١) Conrad . Jack Randolph : The harn and the word – New York , ١٩٥٧. P, ٢٩ - ٣٠.

(٢) جميس فريزر – أدونيس : ١٠٥ .

(٣) ملحمة جلجامش : ١١١- ١١٢ .

٤- هو إلهٌ معبود عند الساميين ويسمى (بعلا) وكان رمزا للخصب والمطر[٤] ؛ كما عبده الكنعانيون وهو عندهم إلهُ خصب الحقول والمواشي ؛ وهو يمتطي السحب ويرسل الغيث والعواصف ؛ وله ارتباط بالإلهة ابنة البرق [٥] ؛ وكذلك عبده الفينيقيون .[٦]

٥- هو الإله (حاداد) أكبر الآلهة في سوريا ؛ وهو إلهُ الرعد والخصب والمطر ؛ وهو على هيئة ثور ؛ وفي معبد هيكل الشمس في بعلبك له تمثالا له رأس إنسان ولحية وقرنان .[٧]

٦- وهو عند المصريين الإله (أبيس) وعدَّ الملوك المصريون أنفسهم ثيرانا ولقبوا أنفسهم ثيرانا ؛ فقالوا : ثور السموات ؛ ويعزون فيضان النيل إليه .[٨]

٧- عبده الهنود وجعلوا له صنما على صورة (عجل) بيده جوهرة .[٩]

٨- عبده العرب الجنوبيون وجعلوه رمزا لإلاههم القمر ؛ فعدوه من الحيوانات المقدسة ؛ التي ترمز إلى الآلهة .[١٠]

---

[٤] التاريخ العربي القديم – ديتلف نيلسن : ٢١٣ .

[٥] مواقف في الأدب والنقد : ٨٨ .

[٦] الكعبات المقدسة عند العرب : ١٨٨ .

[٧] جميس فريزر – أدونيس : ١١٣ .

[٨] مواقف في الأدب والنقد : ٩٣ .

[٩] نهاية الأرب في فنون الأدب .

[١٠] التاريخ العربي القديم : ٢٠٧ .

٩- عبده السبأيون أسموه (المقه) وكانوا يقدمون له القرابين من الثيران فقط .[١١]

١٠- وهو عند الثموديين واللحيانيين الإله (ود) وهو نفسه الإله (المقه) وهو موجود في أكثر الكتابات اللحيانية والثمودية على شكل رأس ثور .[١٢]

بعد أنْ وقفنا على الثور الذي عبدته الأمم الأخرى ؛ سوف نرى أنَّ الثور العربي لا علاقة له بالثور المقدس المعبود ؛ فالثور المعبود هو إلهٌ أو يرمزُ إلى إلهٍ بموجب الديانات الوثنية ؛ والثور العربي حيوانٌ صحراوي قوي كان يعيش بجوار العرب ؛ يصارع من أجل البقاء ؛ والصراع حتما يتطلب قوة لإثبات الوجود ؛ وهذه القوة هي التي لفتت نظر الإنسان العربي إليها ؛ فأعجب بها وتمثلها لنفسهِ ؛ لأنـَّهُ هو الآخر كان يصارع من أجل البقاء في بيئة صحراوية قاسية ؛ ومجرد التفكير بإجراء موازنة بين الثورين ؛ يعد ذلك تعسفا بحق الثور العربي ؛ وتحميله فوق ما يحتمل ؛ ومن هنا بدأت التأويلات والتمحلات ؛ ولي عنقُ الأمور وتحريفها عن مسارها الصحيح ؛ لتأتي مطاوعة لما يريدون ؛ فالدكتور هلال الجهاد جاء بفكرة التناسخ وذلك في قوله [١٣] : (القصيدة النموذج في تناسخ الذات الشعرية في الناقة والثور) وقد استمد فكرته هذه من نظرية تناسخ الأرواح عند اليونانيين ؛ وذلك بعد استقرائه لعدة قصائد

---

[١١] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٥ / ١٤٣ .

[١٢] المصدر نفسه : ٥ / ١٢٣ .

[١٣] فلسفة الشعر الجاهلي : ١٥٥ .

للشعراء : امرؤ القيس ؛ وبشر بن أبي خازم ؛ وعبدة بن الطبيب ؛ والنابغة الذبياني ؛ وأوس ابن حجر ؛ وأبو ذؤيب الهذلي ؛ وزهير بن مسعود الضبّي ؛ وأبو الطمحان القيني ؛ فوجدهم يشبهون الناقة بالثور ثم يجعلون الثور يدخل في صراعٍ دامي مع الصياد وكلابهِ وبالمحصلة النهائية يقتل الثور الكلاب ؛ وينسحب الصياد من ساحة الصراع يجر أذيال الخيبة والهزيمة ؛ وواقع الحال يقول : إنَّ الشاعر الجاهلي في هذه المواقف كان يشبه ناقته المسرعة في مجاهل الصحراء بحيوان مطارد خائف يريد الحفاظ على حياته بأي ثمن كان ؛ لذلك كان عليه أن يسرع ليبتعد عن شبح الموت الذي يطارده ؛ والحق أنَّ الشاعر نفسه كان خائفا من تلك المجاهل وما فيها من الذؤبان العرب والذئاب ؛ فتشبيه الشيء ليس نسخه بل لوجود وجه شبه بين الطرفين ؛ وهنا وجه الشبه يتمثل بالخوف ؛ وأما وجه الشبه في قصائد الشعراء الذين ذكرهم ؛ فالشعراء أبناء بيئة صحراوية واحدة ؛ ويواجهون مصيرا واحدا ؛ ويصارعون عدوا واحدا ؛ ومن هنا تأتي الأفكار والنتائج متشابهة . وأضاف الدكتورهلال الجهاد قائلا [١٤] : (إنَّ الحيوان المستفز هو الذات) والحق هو ليس الذات بل شبيه الذات ؛ وخلاصة ما توصل إليه الدكتورهلال جهاد من خلال قراءة قصائد الشعر العربي التي وردت فيها لوحة ثور الوحش ؛ تمثلت في أنَّ [١٥] انتصار الثور يقترن بالفخر بالذات وبالمدح والهجاء ؛ والثور لا يموت إلا في قصيدتي أبي ذؤيب الهذلي وساعدة بن

---

[١٤] المصدر نفسه : ١٥٩ .

[١٥] المصدر نفسه : ١٥٦ .

جؤية الهــُذلي ؛ والسبب كما يعلله يعود إلى استسلام الشاعرين لفكرة الدهر ؛ وفكرة موت الثور مقترنة برؤية الشاعر وطبيعة وعيه ؛ وهذه النتيجة واقعية يعرفها الجميع ؛ ولكن القارئ يريد أن يعرف لِمَ قــُتِلَ ثورُ أبي ذويب وساعدة ؟ والسبب واضح يتمثل في أنَّ غرض القصيدة عندهما كان رثاءً فهو يختلف عن أغراض الشعراء الآخرين ؛ فالمفتخر والممدوح والمهجو أحياء يرزقون ؛ والمُرثى ميتٌ تحت التراب ؛ والثور الإسلامي الذي قــُتل في الإسلام هو يرمز إلى الشهيد الفتوحات الإسلامية ؛ وله منزلة رفيعة عند الله ؛ فالشهادة في الإسلام عدل النصر ؛ فهي إحدى الحُسنيين (النصر والشهادة) ؛ وأضاف الدكتورهلال الجهاد [١٦] أنَّ الثور يدخل في مواجهة دموية مع الصياد وكلابه ؛ في حين أنَّ الحمار يهرب من المواجهة ؛ وهذه هي الأخرى بديهة معروفة ؛ إذ أنَّ الثور يمتلك أدوات المواجهة المتمثلة بقرنين مدببين قويين ؛ وقوائم خلفية قوية ؛ فهو ينطح عدوه بقرنيه ؛ ويركله برجليه ؛ والحمار أعزل لا يملك قرنا ؛ فهو كمن يدخل الهيجاء بلا سلاح ؛ فيكون مصيره الموت لا محالة ؛ فالهرب في مثل هذه الحالات يعــدُ انتصارا ؛ إن أفلت من قبضة الموت ؛ وهذا ما يحققه حمار الوحش في هربه من ساحة المواجهة ؛ فضلا عن خلو لوحة الصياد مع حمار الوحش وأتانه في كل الشعر الجاهلي من كلاب الصيد المصاحبة للصياد .

---

[١٦] المصدر نفسه : ١٥٨ .

أما الناقد ابراهيم عبدالرحمن فيرى أنَّ [١٧] : (ثور الوحش لم يشكل في رحلة الصيد سوى ظلٍّ للقمر الذي يمثل أحد عناصر الثالوث المعبود في الجاهلية القمر ؛ الشمس ؛ الزُهرة) وأضاف الناقد ابراهيم أنَّ [١٨] : (الصياد لا يطلق الكلاب عليه إلا بعد بزوغ الشمس واختفاء القمر ؛ ولم يتمكن الثور من الانتصار على الكلاب – بعد عراك طويل عنيف – إلا بعد غروب الشمس وعودة القمر للبزوغ) .

أنا أتحفظ على ما قاله الناقد ابراهيم عبدالرحمن ؛ ولي معه وقفة تتقاطع مع ما قال به ؛ تتمثل في عدة ملاحظات هي :

١) الرحلة لم تكن رحلة صيد ترفيهية بل كانت سفرا بعيدا شاقا ومخيفا ؛ تحيط بها مخاطر كثيرة .؛ يخشى فيها المسافر الهلاك عطشا ؛ أو يفترسه أحد الضواري ؛ أو يتعرض له الذؤبان والصعاليك .

٢) الشعراء الذين ورد ثور الوحش في قصائدهم لم يكونوا يعبدون الثالوث المقدس ؛ بل كانوا وثنيين يعبدون الأصنام مثل : اللات والعـُزى وهبل .

٣) الصياد يطلق كلاب السلق وراء الثور مع انبلاج الضوء الأول للفجر ؛ ولا ينتظر بزوغ الشمس ؛ لأنَّ الثور يكون عند بزوغ الشمس قد قطع مسافة طويلة في رحلة هربه من الصياد وكلابه ؛ لأنَّ الرؤية تكون واضحة قبل طلوع الشمس .

---

[١٧] بين القديم والجديد : ٥٧ .

[١٨] المصدر نفسه : ٥٨ .

٤) من قال أنَّ القمر يختفي بمجرد بزوغ الشمس ؟ فالقمر في أكثر أيامه يُرى بالعين المجردة الشمس طالعة ؛ ولاسيما حينما يكون بدرا أو قريبا منه .

٥) عملية صيد الثيران لا تكون إلا في الليالي المظلمة ؛ وهي الأيام الأولى والأخيرة من الشهر القمري ؛ لأنَ القمر يكون للتو قد خرج من المحاق ؛ أو هو قريبا من الدخول في المحاق ؛ وكذلك في الليالي المطيرة والملبدة بالغيوم السود ؛ المصاحبة للعواصف وزئيرها ؛ والرعـــد الذي يصم الأسماع ؛ والبرق الذي يكاد يعمي الأبصار ؛ كما توحي بذلك قصائد الشعراء ؛ وليس في الليالي الهادئة والصافية والمقمرة التي تساعد الثور على الرؤية ومن ثم الهرب .

٦) عملية مطاردة الكلاب للثور لا تستغرق وقتا طويلا ؛ فبمجرد أنْ تلحق الكلاب بالثور ؛ يكر عليهن في مواجهة حاسمة وقصيرة ؛ ينتصر الثور في محصلتها النهائية ؛ ويعاود الجري بعيدا عن مواضع الخطر بعد أنْ فاز بوسام الحياة .

٧) أشار الناقد إبراهيم أنَّ الصراع الدموي بين ثور الوحش والكلاب يستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة ؛ إذن بموجب هذه المعطيات يلحق الصياد بثور الوحش ويرميه بسهم فيقتله ؛ ويحسم الأمر لصالح كلابه ؛ وهذا أمر غير ممكن .

وكان الناقد الدكتورعمر بن العزيز السيف قد قال [١٩] : (تعد الشمس عنصرا معينا للثور في مواجهة شراسة الكلاب التي هجمت عليه

---

[١٩] بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية : ١٤٣ .

مع بزوغ الفجر) لاحظ أنَّ الدكتورعمر قال الشمس مساعدة ؛ وهو بذلك يرفض ما قاله الناقد إبراهيم ؛ لأنَّ الشمس تمنح الثور رؤية واضحة لجو المعركة ؛ وكذلك أكد الدكتورعمر أنَّ الكلاب هاجمت الثور عند بزوغ الفجر ؛ ولم يقل عند بزوغ الشمس ؛ وذلك لوضوح الرؤية قبل بزوغ الشمس وأضاف قائلا [٢٠] : (من المستحيل أنْ تستمر هذه المطاردة اثنتي عشرة ساعة ؛ من وقت انبلاج الصبح حتى حلول الليل) ؛ إذن الدكتور عمر يرفض ما قال به الناقد ابراهيم عبدالرحمن ؛ وما قاله الناقد إبراهيم هو وجهة نظر شخصية ؛ هو مسؤول عنها في حالتي الرفض والقبول ؛ ولسنا ملزمين بها ؛ وأنا لا أتفق معه فيما يرى ؛ بل اتفق وكما سبق مع رأي الدكتور عمر بن العزيز السيف .

أما الناقد الدكتور مصطفى عبدالشافي الشورى فقد وصف لوحة الصراع بقوله [٢١] : (لوحة صراع الثور ؛ صراعٌ بين ارادتين ؛ إرادة الحياة ؛ وإرادة الموت) ؛ الصراع ومنذ الأزل هو صراع بين إرادتين متناقضتين ؛ فالثور يمثل إرادة الحياة ؛ فيما تمثل الكلاب إرادة الموت ؛ والصراع هنا جاء وفق شريعة الغاب ؛ وليس ضمن الشرائع الوضعية والتي تدعو بالبقاء للأصلح ؛ أما لوحة الصراع هنا فكانت تؤمن بالبقاء للأقوى وليس للأصلح ؛ فعليه فلمن تميل كفة القوة والغلبة ؛ هو الذي يبقى على قيد الحياة ؛ وعلى الطرف الآخر الانسحاب من الحياة بعد أنْ يطاله الموت ؛ واستنتج الدكتور مصطفى من خلال لوحات صراع الثور مع

---

[٢٠] المصدر نفسه : ١٤٣ .

[٢١] الشعر الجاهلي : تفسير اسطوري : ١١٨ .

الكلاب ؛ أنَّ الثور دائما لونه ناصع يشبه النجم الثاقب ؛ والشهاب المنقض ؛ والشعرى ؛ والبرق الخاطف ؛ والسيف الصقيل [٢٢] لأنـــَّهُ عندما ينتصر على الكلاب يواصل جريه وكأنـــَّهُ كوكب يأتلق في كبد السماء ؛ وذهب الدكتور مصطفى إلى أنَّ [٢٣] : (الثور مسالمٌ يحب الأمن والسلام ؛ ولا يطلب العنف والقتال ولا يؤذي الكلاب إلا دفاعا عن نفسه) قانون الطبيعة يقول أنَّ الكثرة غلبت الشجاعة ؛ فأنت مهما تكن قويا لابد لقوتك أن تضعف أمام كثرة الأعداء ؛ صياد ماهر محترف ؛ يمتلك قوسا وجعبة سهام ؛ مع عدة كلاب سلق مدربة ؛ أقوى من حيوان منفرد أعزل ؛ لذلك قيل : (ثلثين المراجل الهزيمة) لأنَّ الاحتفاظ بالحياة خيرٌ من فقدانها ؛ وعندما يتعرض لفقدان حياته فعليه أنْ يقاتل من أجل الحفاظ عليها ؛ وقد استنبط الناقد خزعل الماجدي نتيجة جيدة تمثلت في أنَّ [٢٤] : (الثور هو رمز للحكمة والقوة معا) ؛ هرب الثور من الكلاب ؛ سلوك حكمة ؛ فهو يريد أنْ يتجنب القتال والحرب ؛ ولا يدخل المواجهة إلا بعد أنْ اضطرته الكلاب للمنازلة ؛ فقبل التحدي ؛ وكان أهلا له ؛ فقرر المواجهة فانتصر على الكلاب ؛ أما الدكتور عمر بن عبدالعزيز فقد أضاف على ما قاله الدكتور مصطفى [٢٥] : (الثور مثالٌ سامٍ للرجل الجاهلي ؛ الذي يجمع بين القوة والحكمة ؛ وربما هرب الثور من الكلاب

---

[٢٢] المصدر نفسه : ١١٧ – ١١٨ .

[٢٣] المصدر نفسه : ١١٧ .

[٢٤] ميثولوجيا الخلود : ٦٠ .

[٢٥] بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية : ١٤٦ .

ليبتعد عن الصائد ؛ ويتستر بالظلام في مواجهة خصومه ؛ فيكون قد جمع بين الحكمة والقوة والذكاء) .

يعد أنْ استعرضنا مجموعة من آراء النقاد والأساتذة المختصين في الشعر الجاهلي ونقده حول مدلولات رمز الثور ؛ ووجوده في لوحة الرحلة ؛ آنَ لنا أنْ نقول : الرحلة نوعان ؛ رحلة ذهاب ؛ ورحلة إياب ؛ ففي المديح تكون ذهابا ؛ وفي الفخر تكون إيابا ؛ فحينما تكون الرحلة إيابا صوب الديار والأهل والأحبة ؛ ومرابع الطفولة والشباب ؛ تكون ذاتُ ألوانٍ زاهيةٍ مفرحةٍ ؛ وتبدأ الرحلة بالتنامي شيئا فشيئا ؛ لتصل إلى ذروة طموح الشاعر عندما يكون قريبا من ديار الأهل والأحبة ؛ وهي بذلك تمثلُ نقيضا للعفاء والاندثار والجفاء ؛ فهي إذا محاولة لإنعاش الحياة من خلال انفراج الأزمات التي تحيط بالشعراء ؛ وبذلك يكون ثور الوحش معادلا موضوعيا فنيا ؛ وهو في واقع الحال يمثل إيماءً صريحا إلى شخصية الشاعر الفارس البطل ؛ وهنا لا بد لنا من الوقوف على إحدى القصائد الجاهلية التي كان مدار بحثها رحلة في القفار الموحشة والفيافي المضللة ؛ لشاعرٍ افتخر بفروسيته وقومه ؛ فوقع الآختيار على قصيدة جاهلية نادرة للشاعر الأعرج الطائي ؛ وهذه القصيدة فعلا نادرة ؛ فقد ضمت لوحة رحلتها خمس قصص ؛ تداخلت فيما بينها لترسم لنا لوحة جميلة ذات ألوانٍ زاهية ؛ كانت ذروتها في الصراع الدموي ؛ الذي جرى بين ثور الوحش والصياد وكلابه ؛ ومن ثم مع النعامة وظليمها ؛ وقد ارتأيت حذف المقدمة والغرض والاكتفاء بلوحة الرحلة التي

استغرقت تسعة وعشرين بيتا وهي كما قالها الأعرج الطائي مفتخرا بنفسه وقومه : [٢٦]

١- وقد أكونُ أمامَ الحـــي يحملني ... قــدامَ سرحهم ذو ميعةٍ تئــقُ[٢٧]

٢- نهدُ الثميلــةِ إلا أنْ يكمشـــــهُ ... الإجراءُ لا شبهة ٌفيه ولا بلقُ[٢٨]

٣- رحبُ اللبانِ رجيلٌ منهبٌ تئــقُ ... للشدِّ لا سغلٌ فيــه ولا ملقُ [٢٩]

٤- كأنَّ نائبـــه غيثٌ تقحمـــــهُ ... ريــحٌ فيسفحُ تارات ويندفقُ

٥- كأنــه أكلفُ الخدينِ منتصــبٌ ... منه المخالبَ أعلى ريشه لثقُ [٣٠]

٦- بازٌ جريءٌ على الحزانِ مقتدرٌ ... ومن حبابير ذي ماوان يرتزقُ [٣١]

٧- تحنُ إلــى مثلِ الحبابيرِ حيثما ... لدى سكن من قيضها المنفلقُ [٣٢]

٨- وقد طلبتُ حمولَ الحي تحملني ... عنسٌ مواشكةٌ في سيرِها قلقُ [٣٣]

٩- بقى السفار وحرُّ القيظِ جبلتهــا ... فهيَ رذيٌ وفي اخفافِها رققُ [٣٤]

---

[٢٦] قصائد نادرة : ٢٧٥- ٢٧٧ .

[٢٧] تئق : ممتلئ .

[٢٨] الثميلة : الماء القليل الذي يبقى في أسفل الإناء .

[٢٩] رجيل : الرجيل من الخيل الذي في إحدى رجليه بياض ، السغل : الجواد الدقيق القوائم ، الصغير الجثة ضعيفها ، الملق : العيب .

[٣٠] أكلف : لون بين السواد والحمرة .

[٣١] الحزان : الجبل الغليظ ، حبابير : جمع طير الحباري وقيل هي فراخها ، ماوان : واد كثير المياه يقع في ديار عبس .

[٣٢] هذا البيت أخلت به رواية منتهى الطلب من أشعار العرب ، والبيت في معجم تاج العروس مادة : حبر .

[٣٣] مواشكة : مسرعة .

[٣٤] رذي : الذي أثقله المرض ، والرذي من الإبل : المهزول ، الرقق : اللمعان .

١٠- كأنها بعدمـا خفت ثميلتهـا من وحشِ جبةِ موشي الشوى لهقُ [٣٥]
١١- أحس غـُنما ولا يواري طلعته على مدارعِهِ من شملةٍ خـرقُ [٣٦]
١٢- يقودُ غـُضفا دقاقا قد أحالَ بهِ أكل الفقارِ ومن أقوائها السـرقُ [٣٧]
١٣- مقلدات بأوتارٍ ومـن قددٍ كأنـَّهُنَ علـى أعناقِهـا ربـقُ [٣٨]
١٤- فبثهنَ بطاوي الكشحِ مجـردٍ كأنَّ أظلافهُ يهوى بها زهـقُ
١٥- على قرى صحصحانَ يعتلنَ بهِ حتى تداركنهُ لما استوى الفلـقُ [٣٩]
١٦- كأنـَّهنَ إذا أغرينَ عاصيـة خضع الرقابِ وفي أحداقِها زرقُ
١٧- فكـرَّ ثبتا معيدَ الطعنَ ذا نزل طعنَ المبيطرِ إذ ناهى بهِ يشـقُ
١٨- حتى تحاجزنَ عنهُ بعدما كثرتْ منهـا الدمي على آثارِهِ دفـقُ
١٩- فظلَّ غـُنمٌ كئيبا عندَ أكلبـهِ ولم يصده فتيلا ذلك الطلـقُ
٢٠- ثمتْ ولى على دحٍ مسلمـةٍ تعلو الأواعسَ كالعيوقِ يأتلقُ [٤٠]
٢١- أ ذاكَ أمْ خاصبٍ حصٍ قوادمهُ جادتْ لهُ العينُ حتى إحلولكَ البرقُ [٤١]
٢٢ -تبرى له صعلةٌ ربداءُ خاضعـةٌ خدبةُ الجزمِ لا يزرى بها السوقُ

---

[٣٥] وحش جبة : ثور الوحش ، الشوى : جلدة الرأس ، لهق : ابيض شديد البياض .
[٣٦] غنم : الصياد .
[٣٧] السرق : نوع من أجود أنواع الحرير ، غضفا دقاقا : كلاب الصيد الرشيقة .
[٣٨] ربق : حبل تربط به البهائم ، وتعني هنا الطوق الذي يوضع في عنق الكلب .
[٣٩] الفلق : الصبح .
[٤٠] دح : الدفع وإلصاق الشيء بالأرض ، وهو قريب من الدس ، الأواعس : السهول اللينة من الرمال ، العيوق : كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا من ناحية الشمال ويطلع قبل الجوزاء .
[٤١] خاضب : من التخضيب بالحناء ، وهنا أراد الدم .

٢٣-يقرو النقاعَ وتتلوه مواشكـــةً كأنما زفها فـــــي دفها خرقُ [٤٢]

٢٤- قد أودعتْ مــن قفا ناعجٍ ثقلا يحبو عليهِ حصى الأدحي يطرقُ [٤٣]

٢٥- فآنسا همةً من فيخِ نافحـــــةٍ كما يخف أباءٌ غالهُ الحـــرقُ [٤٤]

٢٦- فاستدبرتهُ وصدرُ الريحِ يكثحُها يرقدُ وهيَ تواريهِ وتفتلـــــقُ [٤٥]

٢٧- وقد تألقَ في حماءَ راجســـةٍ برقٌ تطايرَ في أرجائها شـــققُ

٢٨- والليلِ قــد جللَ الآفاقَ شملتهُ وقد تمددَ فوقَ الطخيةِ الغسقُ [٤٦]

٢٩- لولا توقدُ مــا ينفيهِ خطوهمــا على البسيطةِ لم تدركهما الحــدقُ

افتتح الأعرج الطائي قصيدته النادرة بمقدمة وصف الظعن التي انفتحت على لوحة الرحلة ؛ وهذه اللوحة تتكون من خمس لوحات فرعية ؛ انفتح بعضها على بعض لتتشكل منها قصة في غاية الروعة والجمال ؛ فقد كانت قصة موجزة ؛ ولكنها محبوكة استوفت متطلباتها الفنية كافة ؛ فضلا عن أنـَّها أدت ما مطلوب منها بنجاح كبير ؛ واللوحات الخمس هي ما يأتي :

١- الأبيات من ١-٤ في وصف جواده .

٢- الأبيات من ٥-٧ شبه جواده بالباز المحلق في أعالي الجو .

٣- الأبيات من ٨-٩ شبه جواده بالناقة المسرعة في مجاهل الصحراء .

---

[٤٢] يقرو النقاع : يتتبع ما ارتفع من الأرض .

[٤٣] قفي ناعج : مؤخر العنق والناعج المستوي السهل .

[٤٤] فيخ نافجة : فيخ فاخت منه ريح طيبة ، والنافجة كل ريح تبدأ بشدة .

[٤٥] تواريه وتتفلق : تغطيه تارة وتكشفه أخرى .

[٤٦] الطخية : الظلمة .

٤- الأبيات من ١٠-٢٠ شبه جواده بثور الوحش وصراعه الدموي مع كلاب الصيد .

٥- الأبيات من ٢١-٢٩ شبه جواده بالنعامة ذات الظليم ؛ وقد هبت عليهما عاصفة رملية جعلت الرؤية عندهما شبه معدومة ؛ وقد صاحب تلك العاصفة رعد وبرق.

اللوحة الأولى : وصف الشاعر الجواد الذي يمتطيه بأنـــهُ جواد رشيق ؛ ضخم الجثة ؛ خالٍ من العيوب ؛ عبر الشاعر من خلال ذلك عن فروسيته وشجاعته ؛ ليرسم صورة متناسقة الألوان ؛ فالجواد أصيل ؛ صافي اللون ؛ غير أنَّ في إحدى قوائمه بياضا ؛ وأنَّ هذا الجواد يمتاز بالقوة ؛ وسرعة الجري ؛ وهنا نتلمس أنَّ الشاعر أراد أنْ يقيم موازنة بين قومه (قبيلة طيّء) وخصومهم (قبيلة أسد) فبعد أنْ رسم الطرف الأول المتمثل بفتاة الظعن المرعوبة في مقدمة وصف الظعن ؛ عاد ليرسم الطرف الثاني في الموازنة المتمثل بشخصه من خلال وصفه لجواده الصافي اللون الخالي من العيوب ؛ لتميل كفة الميزان لصالحه ؛ وصولا الى صالح قبيلة طيّء : من خلال اللوحات الباقية من الرحلة ؛ والجواد في هذا المقطع من لوحة الرحلة يمثل كناية عن الفارس ليعبر من خلال الجواد عن بطولته وشجاعته في التصدي للمهمات الصعبة دفاعا عن حياض القبيلة .

اللوحة الثانية : انتقل الشاعر من وصف جواده الأصيل الخالي من العيوب ؛ ليشبهه بباز ٍ ذي لونٍ أسود تخالطه حمرة ؛ وهذا اللون من البزاة يحلق في أعالي الجو مترصدا فريسته ؛ وهو يمتاز بالذكاء وحدة

البصر ؛ مع سرعة الانقضاض على الفريسة ؛ والحمرة في لون الباز ترمز الى أنَّ هذا الباز بازٌ فاتك لا تفلت منه الفريسة ؛ وربما كانت الحمرة رمزا للدماء التي تسيل من فرائسه ؛ والباز في حقيقة أمره هو رمز للشاعر الفارس .

اللوحة الثالثة : عاد الشاعر ليشبه جواده هذه المرة بناقة امتطاها ليلحق بالظعون ؛ ليقول لنا أنَ تلك الناقة ؛ لم تكن قوية ؛ بل كانت ضعيفة مهزولة في أخفافها مرض ؛ فضلا عن حر الصيف اللاهب ؛ الذي أتعبها وانهكها ؛ إلا أنـــَّها إذا استفزت أسرعت في سيرها ؛ وهي بتلك المواصفات نجحت في اللحاق بالظعن ؛ ونلحظ هنا أنَّ الناقة المهزولة هي تعبير عن ضعف الخصم ؛ وعدم مقدرته على مجاراته في البطولة والشجاعة ؛ بحيث يمكنه أنْ ينتصر عليه بمثل هذه الناقة ؛ وهذا النوع من التشبيه يمثل الثقة بالنفس ؛ وهناك ملاحظة أخرى في هذه اللوحة تتمثل في مفارقة غير مسبوقة ؛ مفادها أنَّ الشاعر خالف العرف السائد وعكسه على طريقة التشبيه المقلوب ؛ فشبه جواده بالناقة ؛ والمفروض إنَّ يشبه الناقة بالجواد وليس العكس ؛ وهذا فعلا يؤكد أنَّ ظعن مقدمة القصيدة غير حقيقي .

اللوحة الرابعة : في هذا الجزء من لوحة الرحلة ؛ شبه الـــشاعر ســـرعة جواده بثور وحش مستفز مطارد يجري بأقصى سرعة ؛ يريد النجـــاة بنفسه ؛ والإفلات من قبضة الموت الذي يرفرف فوق رأسه ؛ وكلاب الصيد تطارده بلا كلل وملل ؛ ولما لحقنَ به ؛ وكدنَ ينهـــشن قوائمـــه الخلفية ؛ ارتد عليهن ليدخل معهن في صراع دموي ؛ الشاعر هنا رسم

لنا مشهدا دراميا ؛ فثور الوحش الموشى ؛ قد أحس بالخطر المحدق به ؛ من خلال حدسه الذي أنبأه أنَّ صيادا يتربص به ؛ وهو يقود كلابَ سلقٍ مدربةٍ ؛ أطلقها تبحث عن الثور في مكان احتمائه ؛ وكان حدس الثور صادقا ؛ لذا فما كاد الصبح يتنفس ؛ حتى أطلق الثور العنان لقوائمه لتجري به بسرعة متناهية ؛ وكانت منطقة صحصحان هي مسرح الصراع ؛ فلما أصبح الثور والكلاب يعدوان في أرض مستوية ؛ لحقن به وكدن ينهشن قوائمَه الخلفية ؛ وهنا تقين الثور أنَّهُ الموت ولا خلاصَ منه ؛ إلا أنْ يكر عليهن دفعا للموت الزؤام الذي أصبح رهينة في يديه ؛ وما عليه إلا أنْ يدفع الموت عن نفسه ؛ من خلال قبول التحدي ومنازلة الكلاب ؛ وذلك بعد أن ابتعد عن الصياد ؛ وأمن من شرِّ قوسه وسهامه ؛ فما عليه إلا أنْ يحارب من أجل البقاء والظفر بالحياة ؛ فكر عليهن بثقة عالية بالنفس ؛ نطحا بقرنيه المدببتين ؛ وركلا برجليه القويتين ؛ فتخرق قرناه أينما أصابت ؛ فمزقهن وصرعهن ؛ فانحسرت الكلاب وتراجعت أمامه بعد أنْ أخذت الدماء تتدفق من جروحها العميقة ؛ ومن شدة ما بها من الآلام وعمق الجروح ؛ تكاد أنْ تفيضَ أرواحُها ، ليفوز الثور بوسام الحياة ؛ ويواصل عدوه مزهوا بما حققه من نصر كبير ؛ وكأنَّهُ كوكب مضيء ؛ وكان يجري فوق أرض مستوية ؛ وهي تتيح لهُ سرعة الجري ليبتعد عن مواطن الخطر ؛ وفي الجانب الآخر كان الصياد كئيبا لما آل إليه حاله وحال كلابه ؛ لينسحب من ساحة الصراع مستسلما ؛ وقد أطلق لعينيه الدموع ؛ إذ كانت حالته لا تسر ؛ فهو من

شدة حيرته واضطرابه ؛ لا يستطيع أنْ يميز بين الأبيض والأسود ؛ فهو يرى البرق المضيْ أسودا حالكا ؛ والأعرج أراد من خلال هذه المعادلة أنْ يقول لعدوه : أنَّهُ أهل لتحمل المصاعب والشدائد وتجاوزها بقوة من أجل الدفاع عن قبيلته ؛ فهو يتجاوزها بثقة عاليه بالنفس ؛ ليحقق ما يصبو إليه ؛ فيما يحصد عدوه الخيبة والخسران .

اللوحة الخامسة : مثلت اللوحة الرابعة البطولة الفردية للشاعر والتي يجب أنْ توظف في خدمة الأسرة والقبيلة ؛ لذا انفتحت على اللوحة الخامسة والأخيرة والمتمثلة بتشبيه فرسه بالنعامة التي ترعى مع ظليمها في مطمئن من الأرض ؛ يسرح ويمرح أمامها ؛ وهي خلفه ترعاه بلطف وحنان ؛ ولكن الطبيعة لم تمهلهم برعي آمن ؛ فهبت رياح قوية ؛ فأخذت تزأر بقوة ؛ وتذروا الرمال نحوهما ؛ فيما تلبدت السماء بالغيوم ؛ وبدأ البرق يومض ؛ والرعد يطلق أصواته التي تصم الأسماع ؛ وبدا لهما أنَّ البرق يريد أنْ يخطف أبصارهما ؛ فامتلأ قلب الظليم وأمه خوفا ورعبا من تلك المشاهد ؛ لكن حنان الأمومة أقوى من الخوف ؛ فتمالكت النعامة نفسها على الرغم من ضعفها وخوفها ؛ فجعلت ظليمها خلفها ؛ بعد أنْ غطته بجناحيها لتحميه ؛ وبقيت على هذه الحالة ؛ حتى أحكم الظلام طوقه ؛ ولولا ذلك البرق والرعد اللذان أحاطا بهما لفرا بسرعة كبيرة ؛ تكاد العيون لا تدركهما ؛ ومن يتأمل هذه الرحلة بلوحاتها الخمس يستنبط أن الجواد الذي صار بازا ومن ثم ناقة وبعد ذلك ثورا وحشيا هو الشاعر نفسه ؛ فقد جعل من هذه الحيوانات قناعا يختفي وراءه ؛ فيما كانت النعامةُ رمزا للقبيلة التي

تحتضن أبنائها وتدافع عنهم في السراء والضراء ؛ وأما الظليم فكان رمزا لابناء القبيلة الذين يحتمون بقبيلتهم فهي الخيمة التي تجمعهم في الأفراح والأتراح .

بعد هذه اللوحات الخمس ؛ نفذ الشاعر الفارس إلى غرض القصيدة الأساسي المتمثل بالهجاء ؛ الذي يمثل هدف الشاعر في هذه الرحلة ونهايتها ؛ فكانت مقدمة وصف الظعن ولوحة الرحلة بأجزائها الخمس خير مدخل لقصيدة الهجاء .

المصـــادر

بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية : الرمز والاسطورة – الدكتورعـمر بن عبدالعزيز السيف ؛ مؤسسة الانتشار العربي ؛ ط١ ؛ ٢٠٠٩م ؛ بيروت .

- التاريخ العربي القديم – ديتلف نيلس : ترجمة فؤاد حسين علـي ؛ مطبعة لجنة البيان العربي ؛ القاهرة ؛ ١٩٥٨م .
- الشعر الجاهلي : تفسير أسطوري – الدكتورمصطفى عبدالـشافي الشورى ؛ الشركة المصرية العالميـة للنـشر ؛ ط١ ؛ ١٩٩٦م ؛ القاهرة .
- الصراع الفكري – جميس فريزر – أدونـيس : ترجمـة جبـرا ابراهيم جبرا ؛ بيروت ؛ ١٩٥٧م .

- قصائد نادرة من كتاب (منتهى الطلب من أشعار العرب) القسم الأول المنشور في مجلة المورد ، المجلد الثامن ، العدد الثالث ، لسنة ١٣٩٩ هجري – ١٩٧٩ م .
- الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام – شريف يوسف ؛ مجلة المجمع العلمي العراقي ؛ المجلد ٢٩ ؛ ١٩٧٨م ؛ بغداد .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – مطبعة المجمع العلمي العراقي ؛ ١٩٥٥م ؛ بغداد . وطبعة بيروت ١٩٧١م .
- ملحمة جلجامش – ترجمة محمد نبيل نوفل ؛ فاروق حافظ القاضي ؛ دار المعارف ؛ ١٩٧٠م .
- مواقف في الأدب والنقد – الدكتورعبدالجبار المطلبي – وزارة الثقافة والإعلام ؛ بغداد ؛ ١٩٨٠م .
- ميثولوجيا الخلود : دراسة في اسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة – خزعل الماجدي ؛ الدار الأهلية للنشر ؛ ط١ ؛ ٢٠٠٢م ؛ عمان .
- نهاية الأرب في فنون الأدب – النويري ؛ دار الكتب المصرية ؛ ١٩٣٢م ؛ القاهرة .
- Conrad . Jack Randolph : The harn and the word – New York , ١٩٥٧.